في آباء الكنيسة

بقلم المطران سابا اسبر

في الكنيسة قدّيسون كثر، لكنّهم لا يُدعَى جميعهم «آباء الكنيسة». يُطلق هذا اللقب على فئة معيّنة منهم. يُعتبر أباً كلّ شخص قادر على أن ينمّي أشخاصًا في المسيح؛ أن يلدهم ويربّيهم. من هنا، يُطلق هذا اللقب على القدّيس الذي حقّق شروط القداسة، إذا جاز التعبير، أي تألّه واتّحد بالله وصار مسكناً للروح القدس، ويُدرج بين "آباء الكنيسة،" إذا ما تمتع، بالإضافة إلى القداسة، بالقدرة على التعليم والدفاع عن الإيمان. لذا، نجد أنّ معظم آباء الكنيسة المعلمين كانوا يتقنون، على نحو رفيع، علوم هذه الدنيا وعلوم الحياة في المسيح معاً.

هؤلاء القدّيسون الكبار درسوا أهمّ علوم عصرهم وأتقنوها، وكانوا يعيشون مع الله في الوقت ذاته. فسّخروا العلوم الدنيويّة الرفيعة لخدمة التبشير بالعلوم الروحيّة، أي الحياة مع الربّ، بحيث صاروا أدوات طاهرة يسكن فيها الروح القدس. ثمّة آباء معلّمون، استطاعوا بسبب علومهم الروحية والدنيويّة، أن يسكبوا بشارة المسيح في لغة العصر الذي عاشوه، أي تكلّموا على المسيح لأبناء زمنهم بلغتهم، حتّى يتمكّن هؤلاء من فهمها. وثمّة آباء روحيون، تقدموا في الحياة مع الله واستناروا به، فصاروا آوانٍ للروح القدس، الذي تكلّم من خلالهم. بقي بعضهم مجهولاً، وعُرف آخرون بإرشادهم، ومنهم من كشفه الله بوضوح من بعد رقاده. ثمّة نماذج حتّى اليوم من كلّ الفئات.

الصفة المشتركة التي نلاحظها لدى الآباء المعلّمين، الذين نتتلمذ على كتاباتهم، هي أنّه كانت لديهم ثقافة زمنهم العالميّة وعُرفوا بذكائهم. فالقدّيسون باسيليوس الكبير، ويوحنّا الذهبيّ الفم، وغريغوريوس اللاهوتيّ، ومكسيموس المعترف، على سبيل المثال لا الحصر، كانوا يملكون عقولاً نيّرَة، وثقافةً عالميّة رفيعة. لكنّ هذا الجانب العقليّ لم يكن منفصلاً عن القلب المستنير المغتنيّ بالروح القدس. كانوا معلّمين أصيلين، كما كانوا، في الوقت عينه، متقدّسين حاصلين على نعمة الروح القدس.

من الضروريّ أن نتذكّر هذه النقطة، لأنّنا معرّضون دوماً إلى خطر الانجذاب إلى طرف دون الآخر. نشهد حالياً تيّارات تشدّد على المعرفة، وتيّارات أخرى تشدّد على حياة التقوى. لم يكن الآباء متطرّفين، لا في هذه ولا في تلك، بل أعطوا لكلّ جانب حقّه، وعلّموا بأنّ الفضيلة هي الوسط بين تطرفين. فكان شرط القداسة موجوداً لديهم، إلى جانب شرط العلوم الدنيويّة.

التعمّق في هذه الظاهرة ضروريّ، لأنّ العالم المسيحيّ، بعامّة، يشهد تركيزاً جامحاً على العقل و«البحث العلميّ» و«الأكاديميّة». ليست هذه الأمور سيّئة بحدّ ذاتها، لأنّ على المسيحيّة أن تخاطب إنسان العصر وأن تخاطبه بلغته، لا بلغة لا يفهمها، وإلا اندثرت البشارة. ولكنّ السوء يظهر عندما يُحصر التركيز في هذا الأمر على حساب الحياة في المسيح. آنذاك نقع في فخ الحصول على ما يُسمى اليوم بالعلوم الدينيّة، فتغدو القضية ثقافية، لا حياتية.

لذلك، نلاحظ، من حين إلى آخر، وجود تيّارات متصارعة في الكنيسة، بعضها يشدّد على الحياة الروحيّة فقط، وبعضها على الثقافة والفكر المسيحيين حصراً. قد يظهر هذا الصراع إلى العلن، وقد يكون خفيّاً. وتبقى الحاجة ماسة إلى اكتساب الوجدان الآبائي الذي يسمح لنا بقراءتهم الصحيحة، وفهم روح منهجهم، لا حرفه.

من الضروري هنا أن نعرف أنّ معظم الآباء لم يكونوا أساتذة أكاديميين بالمعنى المعاصر لكلمة "أكاديميا"، بل رعاةً ووعّاظاً أو مرشدين روحيين وأطباء نفوس يعالجون أمراض الناس الروحية، أو مدافعين عن الإيمان تجاه الهرطقات. الكثير من كتاباتهم مقالات أو عظات تربوية موجّهة إلى الرعية أو دفاعية تشرح الإيمان المستقيم وتبيّن الانحراف عنه وتواجه الهرطقات، ومعظم كتاباتهم دَوَّنها السامعون مباشرة. لم يتعامل الآباء مع نخبة مثقّفة حصراً، ولم يطلبوا العلم الدينيّ المحض، وإن كان بعضهم، بحسب ظروفهم، قد دخلوا في حوارات أو سجالات مع بعض الفلاسفة أو المثقفين، بداعي الشهادة لإيمانهم. هدفهم مساعدة الناس في الوصول إلى ملء قامة المسيح. عبر هذا الحسّ بأهمّية رعاية الناس وتربيتهم ليصبحوا على صورة المسيح، كان الآباء يدافعون عن الإيمان، ويشرحون الكتاب المقدّس، ويواجهون تحدّيات العصر.

ما كان الآباء مهتمّين بنقل المعرفة المجرّدة، بل غاصوا في تفاصيل حياة الناس. فالقديس يوحنّا الذهبيّ الفم، مَثَلاً، يتكلّم، في عظاته، على المسارح والأزياء ودقائق حياة المؤمنين، ويربط كلّ هذه النقاط بالأخلاق المسيحيّة السليمة. لم يكن الهدف، إذن، تأليف الكتب، بل إيصال الناس إلى ملء قامة المسيح. فمَن يدرس الإنجيل قد يُخطئ فهمه، لذلك لا بد من معرفة تفسير الإنجيل حتّى يتمكن المؤمنون من عيشه.

نمط التكوين العقلي للبشر اليوم بات يطلب المعرفة أكثر مما يطلب عيشها. يقارب الإنسان المعاصر الله بعقله، لا بقلبه. كانت مدارس تعليم الإيمان أو اللاهوت موجودة دائماً، وكذلك العظات كانت أساسية في خدمات العبادة منذ بدء المسيحية. لا يكمن الخطأ في طلب المعرفة الدينية، بل في السعي إليها دون الاهتمام بتطبيقها وعيشها. المؤمنون اليوم، بحكم سهولة انتشار المعلومات، معَّرَضون إلى تجربة طلب العلوم الدينية أكثر من طلب عيشها، وهذا ما يؤدي إلى تضخم العقل على حساب القلب، فتغدو المؤسسة الدينية جافة لا حياة فيها. أليس هذا ما يفسّر أحد أسباب توَّجه الكثيرين إلى الأديرة طلباً لإيمان حيّ، لا مُعَلَّب. لا بل بات كثيرون يطلبون سلاماً داخلياً في ممارسات دينية، من الشرق الأقصى، خالية من المسيح.

تكون الفائدة أكبر إذا ساعدنا الناس على عيش المسيح ونقله في شكل مفهوم، لا حشوهم بالمعلومات الدينية.